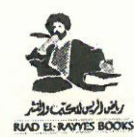

رياض نجيب الريّس
الحرب المنسيّة
السويس ١٩٥٦
رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

ريـاض نجيب الريّـس

الحرب المنسيّة

السويس ١٩٥٦



إلى ذكرى

أبو علي حسين حلاق،

رفيق أيام السويس

THE FORGOTTEN WAR:
SUEZ 1956

By

Riad Najib El-Rayyes

First Published in November 2006

BEIRUT- LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb • www.elrayyes-books.com
• www.elrayyesbooks.com

ISBN 9953-21-261-9

الغلاف: محمد حمادة

الطبعة الأولى: تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٦

المحتويات

مدخل

مقدمة شخصية

□ عندما وصلت إلى إنكلترا في مطلع شهر آب/أغسطس من العام ١٩٥٦ كان السير أنطوني إيدن رئيساً لوزراء بريطانيا وزعيماً لحزب المحافظين الحاكم، خلفاً لونستون تشرشل. وسلوين لويد وزيراً للخارجية البريطانية. أما هيو غيتسكيل فكان زعيماً لحزب العمال المعارض. وكان جمال عبد الناصر رئيساً لمصر وزعيماً للعرب وقائداً لفكرة القومية العربية، وكانت غيوم أزمة قناة السويس والحرب التي تبعتها قد بدأت تتلبد، والسماء السياسية في العالم مكفهرّة.

وكان غي موليه، زعيم الحزب الاشتراكي الفرنسي، رئيساً لوزراء فرنسا، وكريستيان بينو وزيراً لخارجيتها. وكان الجنرال الجمهوري دوايت أيزنهاور رئيساً للولايات المتحدة وجون فوستر دالاس وزيراً لخارجيتها. وكان خروتشوف وبولغانين زعيمي الاتحاد السوفياتي وأندريه غروميكو وزيراً للخارجية. وكانت الحرب الباردة، القريبة من السخونة باستمرار، على أشدها. ووجدت نفسي، وأنا الشاب اليافع في حدود الثامنة عشرة من العمر، المسافر لأول مرة خارج بيته وبلده، وسط عالم سياسي يغلي بالأحداث الجسام ويضج بالمتغيرات التي لم يألفها.

كانت ثورة الجزائر ضد الاستعمار الفرنسي في أوجها. وكانت الثورة ضد النظام الشيوعي في المجر ومشهد الدبابات السوفياتية وهي تضرب العاصمة بودابست في كل صحف العالم. وكانت ثورات التحرر في أفريقيا السوداء وحركات الاستقلال من

الاستعمار البريطاني والبلجيكي والبرتغالي والفرنسي تنتشر كالنار من شمال القارة في تونس والمغرب إلى جنوبها في موزمبيق، ومن شرقها في زنجبار إلى غربها في ساحل الذهب (غانا اليوم)، ومن وسطها في الكونغو إلى أسفلها في جنوب أفريقيا ذات النظام العنصري. كان العالم كله يغلي وأنا ألتهم الصحف الإنكليزية والعربية في صقيع إنكلترا القاسي. كان نهمي لقراءة كل ما تكتبه الصحافة البريطانية عن الشرق الأوسط تحديداً، في أوجه. كما أخذت أتابع مواقف الأحزاب البريطانية من القضايا العربية والتعرف إلى الشخصيات الحزبية والبرلمانية البريطانية.

قبل خمسين عاماً كنت شاهد عيان على أهم حدث وقع على العالم العربي في القرن العشرين، غيّر جذرياً من معالم الشرق الأوسط، سياسياً وتاريخياً، وأدى إلى تطورات لم تكن بالحسبان. هذا الحدث هو حرب السويس أو «العدوان

الثلاثي» في العام ١٩٥٦. كانت مياه القناة تمر من تحتي كل يوم، ومشهد السويس يملأ ناظري وصوت جمال عبد الناصر يشنف أذني وصوَر أنطوني إيدن تطالعني في كل مكان. وكنت أنا العربي أرصد أحداث هذه الأزمة التاريخية الكبرى وأعيش تداعياتها وأتابعها عن طريقين: طريق الصحف، قراءة ومتابعة، وطريق الصحافيين الذين تعرفت إليهم في حمأة تلك الظروف، وشكلوا لي مرجعية ساهمت في إغناء ثقافتي السياسية ووعيي التاريخي.

قبل خمسين سنة تماماً عندما وصلت لندن، وكان الرئيس جمال عبد الناصر قد أعلن تأميم شركة قناة السويس في ٢٦ تموز/يوليو، كنت كمعظم أفراد جيلي، من المتحمسين لما قام به عبد الناصر، دون أن نعي تماماً ما سيؤدي إليه هذا الحدث من نتائج. وظل خطاب تأميم القناة التاريخي الحماسي واسم فرديناند دولاسبس،

المهندس الفرنسي الذي حفر القناة، عالقاً في أذهاننا فترات طويلة من العمر. ولم يكن الكثير من أقراني يملكون إلّا القليل من المعرفة التاريخية السياسية، وكانت الصفة البارزة لذلك الجيل هي الحماسة البالغة التي أشعلها عبد الناصر فيه منذ قيام الثورة المصرية في ٢٣ تموز/ يوليو من العام ١٩٥٢، والتي توّجها تأميم القناة. وقد حملت في طياتها كل معاني النضال ضد الاستعمار على مختلف مستوياته.

□ □ □

انضممت بعد وصولي إلى لندن إلى «رابطة الطلاب العرب في المملكة المتحدة وإيرلندا»، كما هو اسمها الرسمي، التي كانت المنظمة العربية الوحيدة التي تجمع الطلاب العرب في بريطانيا، خارج تنظيمات الأحزاب العربية، كحزب البعث والحزب الشيوعي وحركة القوميين العرب، والحزب

السوري القومي الاجتماعي وغير ذلك من التجمعات والكتل العربية القطرية التي كانت قائمة أو ناشطة إلى حد ما في تلك الأيام. وعبر عدد من قدامى الطلاب العرب في الرابطة اختلط بمجموعة من الشباب الإنكليزي من طلاب وسياسيين أعضاء في الأحزاب، كحزبي العمال والأحرار، من المتعاطفين مع القضايا العربية.

وكانت الأجواء في تلك الأيام أجواء سمحة بين الإنكليز والعرب، ليس فيها من تشنج هذه الأيام. وكان أهم مَن تعرفت إليهم أيان كامبل، المحامي ومدير قسم الأبحاث الخارجية في حزب العمال، الذي كان له الفضل في تعريفي بمايكل فوت الذي بدوره عرفني إلى إديث سمرسكيل وزيرة الصحة السابقة في حكومة العمال والناشطة في الحزب. وكان فوت يدعوني وزملائي من الطلاب العرب إلى كل التجمعات الحزبية والنقابية التي تقام ضد سياسة حكومة إيدن لتحشد فيها التأييد لعبد الناصر

وتأميم القناة. وكان هناك غاي موور، الموظف السابق في وزارة المستعمرات البريطانية منذ العام ١٩٢٨. والخبير في شؤون الشرق الأوسط، الذي كان يشرح لنا خفايا السياسة الاستعمارية البريطانية. إلّا أن أهم من تعلقت بهم، كان فنر بروكواي، النائب العمالي في مجلس العموم ورئيس «حركة الحرية للمستعمرات» **Movement for Colonial Freedom**. وكان بروكواي، رجلاً مسنّاً في حينه، يأخذني معه إلى اجتماعات الجمعية وإلى التظاهرات التي كان يخطب فيها. وتكرر ظهوري معه إلى درجة أن مجلة «جويش كرونيكل» اليهودية، نشرت صورته وأنا إلى جانبه في سياق مقال تهاجمه فيها.

في تلك الفترة المزدحمة بالأحداث يومياً، حيث أهمل معظمنا دراسته، أخذنا نزور دور الصحف لنتحدث إلى القائمين على تحرير مواضيع الشرق الأوسط فيها، الذين سبق لكامبل أن عرّفنا بهم،

ومنهم مايكل أدامس، الذي كان مراسلاً لـ «الغارديان» في الشرق الأوسط، وروبرت ستيفنس المحرر في «الأوبزرفر» الذي كتب فيما بعد كتاباً عن عبد الناصر، لعله الأهم في رأيي حتى الآن عن الزعيم المصري. ودعاني ستيفنس مرة إلى حضور اجتماع التحرير ظهر السبت الذي كان يعقده رئيس التحرير دافيد استور لمحرري «الأوبزرفر».

وكان الفضاء الشخصي والسياسي في لندن واسعاً في تلك الأيام، بين المجموعة العربية الصغيرة، ومعظمهم من الطلبة، وبين الناشطين الإنكليز من السياسيين المعارضين لتوجهات حكومة إيدن والمجموعة الصحافية من الكتّاب والمراسلين الصحافيين التي فتحت لنا مكاتبها لنتبادل الرأي فيها. وكان هناك راندولف تشرشل، ابن السير ونستون تشرشل رئيس الوزراء البريطاني السابق، الكاتب في مجلة «سبكتاتور» المحافظة، الذي كان

يكره إيدن أكثر مما كان يكره عبد الناصر. وكان الحديث معه في السياسة متعة وهو يعب الشراب عباً. وكان هناك الكاتب الإيرلندي أرسكين تشايلدز الذي كان يكتب في الصحف والمجلات، وأول من تصدى للدفاع عن عبد الناصر والقضايا العربية خلال أزمة السويس وبعدها.

هناك كُثر من الصحافيين البريطانيين الذين تقاطعت فيما بعد الطرق بيني وبينهم في حياتي الصحافية، إنما غيّبتهم الذاكرة اليوم. وما هؤلاء إلا حفنة من الذين عرفتهم قبل نصف قرن، وكانوا مضيئين في ثقافتي المهنية. بالنسبة لي، كان لهؤلاء الأشخاص فضل كبير في الحفاظ في ذاكرتي على تجربة حرب السويس، كمراقب من المنظور البريطاني. ولعل أغلب مَنْ ذكرت قد رحلوا اليوم عن هذه الدنيا، إنما أحفظ لهم الكثير من الامتنان والود.

□ □ □

تلك الأيام كانت أيام الصحافة والجرائد والراديو. لم يكن التليفزيون قد وصل بلادنا بعد، إنما بالكاد انتشر وبشكل محدود، في بلاد الإنكليز. كانت الصحف الصادرة في إنكلترا تلك الأيام هي مصدر الأخبار الوحيد لي أنا القادم إلى عاصمة الضباب، بقدر ما كانت مصدر إلهامي أيضاً. وكانت كلمة «السويس» تصفعني في عناوين كل جريدة إنكليزية يقع نظري عليها، حتى ظننت أنها تعني بالإنكليزية غير ما تعنيه بالعربية. كان هذا قبل أن تصبح هذه الكلمة الجغرافية مصطلحاً سياسياً.

وما هذه المحاولة لاسترجاع قصة حرب السويس التي تعتمد في الدرجة الأولى على جرائد تلك الفترة، إلا نوع من الحنين إلى الذكريات الشخصية التي رافقتني في تجوالي في تجمعات وتظاهرات تلك الأيام وتطوافي في أروقة الصحف ومكاتبها في «فليت ستريت» شارع الصحافة آنذاك، حيث كانت

مباني الصحف ومطابعها. وحكاية أزمة السويس هي حكاية صحافة ذلك الزمان وصحافييه. أما المصادر «الرسمية» لتلك الفترة التاريخية فكثيرة جداً، إذ صدر خلال نصف قرن باللغة الإنكليزية وحدها، مئات الكتب، ناهيك باللغات الأخرى. وقد اعتمدت للدقة التاريخية آخر كتاب صدر عن السويس في آب/ أغسطس ٢٠٠٦(*)، ومجموعات الصحف البريطانية في تلك الفترة، الموجودة في المكتبة البريطانية العامة. فقصة السويس هي قصة الصحافة.

(*) Suez 1956 -The First Story of the First Oil War - by Barry Turner - Hodder and Stoughton- London 2006.

1

دور الصحافة البريطانية

□ عبر جريدة محدودة الانتشار في حينه كانت تصدر خارج العاصمة البريطانية، تعرفت قبل نصف قرن على قضيتين أساسيتين تلازمتا زمنياً وشكلتا بالتناوب قضايا ساخنة: تأميم قناة السويس و«العدوان الثلاثي» ــ كما اعتدنا تسميته في العالم العربي ــ الذي تلاه على مصر. ومن جهة ثانية انتفاضة بلاد المجر على النظام الشيوعي فيها وقمع الاتحاد السوفياتي ثورة المجريين بعنف لا مثيل له على مرأى من العالم.

هذه الجريدة هي «المانشستر غارديان» التي

كانت تصدر من مانشستر، العاصمة التجارية والصناعية في شمال إنكلترا، وتطبع هناك. وكانت تُصنف بأنها جريدة محلية من الأقاليم «Provincial» على الرغم من أنها كانت توزع في لندن. غير أن تأثيرها السياسي ونفوذها الدولي كانا أهم وأبعد من أرقام توزيعها. ففي منتصف الخمسينيات، كان ثلثا قراء هذه الجريدة من خارج مانشستر، وبلغ توزيعها ٢٠٠,٠٠٠ نسخة يومياً. لكن هذه الجريدة غير العادية أدّت دوراً سياسياً (أساسياً إن لم يكن خطيراً) خلال أزمة السويس من بدايتها حتى نهايتها بحكم تميّز مواقفها المبدئية وتغطيتها المهنية الراقية ومعارضتها لحكومة المحافظين. بالإضافة إلى وجود أقنية اتصال خاصة بين وزير الخارجية الأميركي جون فوستر دالاس وبين رئيس تحريرها ا.ب. وادزورث. وكانت ملكية «المانشستر غارديان» تعود إلى مؤسسة عائلية لإحدى أسر شمال إنكلترا التجارية، قبل أن

تتحول إلى شركة مساهمة كبرى وتنتقل إلى العاصمة في السبعينيات وتسقط اسم مانشستر من عنوانها لتصبح «الغارديان» فقط، إحدى أهم كبريات الصحف الليبيرالية البريطانية اليوم. باختصار، لم تكن جريدة «إقليمية محلية» عادية. كانت واحدة من أهم صحف بريطانيا في ذلك الزمان.

كان وادزورث، رئيس التحرير منذ العام ١٩٤٤، مريضاً بالسرطان وعلى فراش الموت في صيف العام ١٩٥٦، إبان بدايات أزمة السويس. وكان يُعدّ محرر الشؤون الخارجية في جريدته، الشاب أليستير هثرينغتون البالغ من العمر ٣٦ عاماً، الذي سبق أن كان ضابطاً في سلاح الدبابات في الحرب العالمية الثانية، لخلافته رئيساً للتحرير. وكان كلاهما وادزورث وهثرينغتون، قد رسما خطاً لـ «الغارديان» معارضاً لسياسة حكومة

المحافظين البريطانية تجاه أزمة السويس، مما قاد الجريدة إلى دور صدامي خطير في وجه حكومة السير أنطوني إيدن أدى في النهاية إلى إسقاطها. ولم يحسب الرجلان حساب الخسائر المادية التي ستصيب الجريدة من جراء هذا الموقف السياسي المعارض. وتوفي وادزورث في ٤ تشرين الثاني/ نوفمبر من العام ١٩٥٦، في اليوم الذي بدأت فيه القوات البريطانية والفرنسية المشتركة هجومها على مصر من قبرص.

كانت تغطية «الغارديان» لأحداث أزمة السويس عدائية، ومزعجة، إلى درجة أن رئيس الوزراء السير أنطوني إيدن حاول منع هيئة الإذاعة البريطانية (بي.بي.سي) من نقل ما تكتبه «الغارديان» عن الأزمة في أقوال الصحف التي تذيعها كل يوم. كما منع مراسل الجريدة الديبلوماسي ريتشارد سكوت من التحدث في

الإذاعة. وطرح إيدن مشروع قانون خطير يقضي باستيلاء الحكومة على الـ بي.بي.سي وإلغاء استقلاليتها القانونية إذا تمّ غزو مصر. إلّا أن المشروع لم يتحقق.

غير أن أزمة السويس كانت قد بدأت تتصاعد منذ أواخر تموز/ يوليو من العام ١٩٥٦، بعدما أعلن الرئيس جمال عبد الناصر تأميم القناة. وصدرت أول افتتاحية لـ «الغارديان» كرد فعل على الأزمة (في زمن كان قرّاء الصحف فيه يقبلون على قراءة الافتتاحيات قبل الأخبار) تدعو الحكومة إلى التعقل، وعدم الاستخفاف بقدرات عبد الناصر، قائلة أن الغرب لا يستطيع استعمال القوة العسكرية وسيلة لضمان تدفق النفط. ووقّع رئيس تحرير «الغارديان»، الشاب الجديد، قبل أن يتسلم منصبه رسمياً، مقالاً ضد إنذار بريطانيا وفرنسا المشترك بالهجوم على مصر، إذا لم

تنسحب قواتها من منطقة القناة، رافضاً التهديدات بالحرب. وبينما كانت الافتتاحية تكتب كانت إسرائيل، الشريك السري في حينه في المشروع الإنكلو ـ فرنسي لمنع تأميم قناة السويس، تتقدم الهجوم على مصر. وكان تاريخ الافتتاحية ٣١ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٥٦.

خلال أيام من صدور هذه الافتتاحية، تلقى هثرينغتون أول اتصال عبر قنواته الخلفية من مراسله في واشنطن ماكس فريدمان، الذي كانت له صلات خاصة بوزير الخارجية الأميركي جون فوستر دالاس. وصعق رئيس التحرير بمحتوى الرسالة التي جاءته، وفيها أن دالاس قد تبلغ من سفيره في لندن، بأن الحكومة البريطانية تستعد لشن الحرب على مصر. انطلاقاً من هذه المعلومة بدأت «الغارديان» محاولة تغطية الاستعدادات السرية للحرب، وقد أدركت أن الولايات المتحدة

لن تؤيد فكرة الهجوم على مصر. وحاولت «الغارديان» التحايل في تغطيتها تجنباً للوقوع تحت طائلة القوانين البريطانية التي كانت ـ وما زالت إلى اليوم ـ تمنع الصحافة البريطانية من نشر ما تعدّه الحكومة أسراراً عسكرية أو وطنية. وواصل المراسل النشط فريدمان من واشنطن كتابة الرسائل السرية إلى رئيس تحريره، وأهمها رسالة في ١٠ آب/ أغسطس لخص فيها شعور دالاس مفادها: «هناك استعدادات لعمل عسكري ضد مصر من بريطانيا وفرنسا، وإنه (أي دالاس) يشعر بأنه من الصعب أخلاقياً الدفاع عن هذا العمل الذي لن يتفهمه العالم، والذي سيؤدي إلى تحطيم الأمم المتحدة إذا تم التدخل المسلح... «إنها حالة خطرة جداً جداً» حسب قول دالاس.

□ □ □

لم يقف إلى صف «الغارديان» في هجومها

العنيف على التدخل العسكري ضد مصر سوى «الأوبزرفر». وكانت «الأوبزرفر» صحيفة أسبوعية تصدر صباح كل أحد، تمثل التيارات الليبيرالية في السياسة البريطانية والتوجهات الحرة في الثقافة والفنون، معادية للمحافظين ومتعاطفة مع شعوب المستعمرات. وكانت تمثل الوجه التقدمي لصحافة الأحد مقابل الوجه الآخر المحافظ لـ «الصنداي تايمز». وكان صاحب «الأوبزرفر» ورئيس تحريرها دافيد أستور، ابن أول امرأة (ماري أستور) تدخل مجلس العموم البريطاني في الثلاثينيات، بعدما مُنحت النساء في بريطانيا حق الانتخاب والترشيح. وكانت «الأوبزرفر» مملوكة من شركة عائلية خاصة لآل أستور، قبل أن تباع لعدة جهات ثم تستقر اليوم كجزء من شركة «الغارديان» الجديدة، ووجها المماثل يوم الأحد.

وانقسمت الصحافة البريطانية إلى فريقين

واضحين. فريق مع حكومة إيدن في استعمالها القوة لاستعادة القناة من عبد الناصر، وفريق ضد الحكومة وضد إشعال حرب من أجل القنال. على رأس الفريق الأول كانت «التايمز» ومعها «الإكسبرس» و«الميل» و«السكنتس» و«التلغراف» و«إيفنينغ نيوز» و«إيفنينغ ستاندرد» و«الصنداي تايمز» و«الصنداي اكسبرس». أما الفريق الثاني المعادي لحكومة إيدن، فكان إلى جانب «الغارديان» و«الأوبزرفر»، مؤلفاً من «الميرور» العمالية، «نيوز كرونيكل» الليبيرالية «مورنينغ ستار» الشيوعية، «بيبول» الشعبوية. لكن «المانشستر غارديان» و«الأوبزرفر» وحدهما استمرتا في معارضة التدخل العسكري بلا هوادة طوال فترة الأزمة. وانضمت إليهما فيما بعد «الإيكونوميست»، المجلة الأسبوعية الواسعة النفوذ والواسعة الانتشار اليوم في الولايات المتحدة، في أوضح موقف مباشر ضد الهجوم العسكري

البريطاني على مصر، في افتتاحية لها صدرت في ٢ تشرين الثاني/ نوفمبر.

وكان موقف الجريدتين «الغارديان» و«الأوبزرفر» المعاديتين لسياسة حكومة إيدن قد عرّض الجريدتين لضغوط اقتصادية من أطراف عدة، أدت إلى قطع عدد كبير من الاشتراكات ووقف الحملات الإعلانية فيهما، وعزوف عدد من القرّاء عن شراء الجريدتين. وأصبح الوضع المادي لكل منهما حرجاً، بالرغم من انضمام أعداد من القرّاء الجدد الذين لم يكونوا من زبائنهما.

كانت المفاجأة في الأوساط الصحافية، هي انقسام صحافة المحافظين. وأهمها مجلة «سبكتاتور» الأسبوعية المحافظة اليمينية، المنافسة لمجلة «نيو ستيتسمان» الأسبوعية العمالية اليسارية، التي كان يرأس تحريرها كينغسلي مارتن، أحد أشهر صحافيي إنكلترا في ذلك الوقت. وكان أيان

غيلمور، الذي أصبح وزيراً فيما بعد في حكومة مارغريت تاتشر، صاحب ورئيس تحرير «سبكتاتور»، قد سارع في أول عدد صدر من مطبوعته بعد الهجوم على القناة، إلى كتابة افتتاحية يدين فيها الاعتداء وينذر رئيس الوزراء أنطوني إيدن بأنه سيواجه اتهامات بالخداع لاعتداء جائر، إذا فشل الهجوم العسكري. وكان موقف غيلمور أول خروج عن الصف.

بعد موقف غيلمور في «سبكتاتور»، أخذ عدد من السياسيين والديبلوماسيين المحافظين من الصف الثاني يستقيلون من الوزارة ومن الخارجية اعتراضاً على مخططات إيدن، بدءاً بوزيري الدولة أنتوني تاتينغ من الخارجية وإدوارد بويل من المالية مروراً بسواهما من أعضاء السلك الديبلوماسي. واتضح أن موقف المحافظين لم يكن متماسكاً وخاصة كريستوفر سومز وزير دولة لشؤون الطيران، والأهم

صهر السير ونستون تشرشل زعيم المحافظين ورئيس الحكومة السابق، الذي أبدى شكوكه في موقف إيدن ورفض دعوة عمه تشرشل إلى تأييد إيدن علناً. علماً أن تشرشل نفسه كان له اعتراضات على خطة إيدن. وكان راندولف تشرشل، ابن ونستون، المعادي لإيدن، من كتّاب «سبكتاتور».

وسط هذه الأجواء المرتبكة داخل المحافظين، الحزب الأكثر تشتتاً، تولى هارولد ماكميلان الحكم، فتحول من أحد الصقور إلى كبير الحمائم، وبدأ عملية تصفية الإمبراطورية البريطانية، التي قال عنها أيان غيلمور: «إن ثورة العراق في تموز/ يوليو ١٩٥٨ واغتيال الأسرة المالكة العراقية في بغداد كانا المؤشر الأكيد على انسحاب بريطانيا النهائي من الإمبراطورية. بعدها، وبسبب السويس، جرت عملية التسلم والتسليم بين بريطانيا والولايات المتحدة، لتتربع واشنطن على عرش إمبراطورية

جديدة ورثتها، لم تعد لندن قادرة على حملها».

وظل أيان غيلمور، طوال حياته الصحافية والسياسية، من المحافظين المعتدلين المحسوبين من أصدقاء الشرق الأوسط والمتفهمين لظروفه.

□ □ □

مقابل «الغارديان» كانت «التايمز» التي أدت، بطريقتها الخاصة، دوراً أساسياً في أزمة السويس. فكان إيدن يجتمع باستمرار مع رئيس تحريرها السير وليم هايلي ويعطيه من المعلومات والأسرار ما لا يعرفه معظم وزرائه. وكان هايلي وجريدته يؤيدان في بداية الأزمة إيدن وسياسته في أزمة السويس، لكنه سرعان ما ابتعد عن إيدن، عندما لم يعد رئيس الحكومة البريطانية يتقبل أي موقف حيادي لا يدعم سياسته مباشرة. وتوقفت

اجتماعات الرجلين. وابتعد هايلي عن إيدن، ولم تعد «التايمز» تعبّر أو تدافع عن سياسة «داونينغ ستريت» ومواقفه، وعمَّ الفتور بين الجهتين حتى سقوط إيدن، وكان هذا الفتور من التقاليد «الجنتلمان» بين الصحافة والسياسيين في تلك الأيام، من غير أن تنتقل العلاقة من حالة التأييد إلى حالة العداء السافر.

وكانت افتتاحيات دافيد أستور في «الأوبزرفر» الأعنف والأقوى ضد الإنذار البريطاني ــ الفرنسي المشترك لمصر، وضد العمل العسكري، حتى أصبحت مقالاته توزع في التظاهرات التي كانت تنظم في حينه ضد العدوان. في ذلك الوقت، كانت صفحات «الغارديان» و«التايمز» مسرحاً لنقاش مستفيض حول قانونية الموقف البريطاني وحججه في تأميم القناة، وحول شرعية التهديد العسكري بالتدخل. ولم يكن الرأي العام البريطاني

قد شهد انقساماً بهذا الشكل منذ أيام أزمة ميونيخ في العام ١٩٣٨ (التي أدت إلى الحرب العالمية الثانية)، ولم يكتف المؤيديون لحكومة إيدن والتدخل البريطاني بالضغوط الاقتصادية على «الأوبزرفر» و«الغارديان»، بل أخذوا يقاطعون مراسلي الجريدتين في الاجتماعات والندوات التي كانوا يعقدونها ليمنعوا تغطيتهما، ويتهمونهما «بالخيانة» لأنهما لا تؤيدان «أولادنا بالكاكي» ــ أي الجيش البريطاني.

وتصاعد العداء للجريدتين وازداد نفور القرّاء المحافظين منهما، واتُّهمت «الغارديان» علناً بالخيانة و«الأوبزرفر» بالتجديف. وعلى الرغم من المقاطعة الإعلانية ارتفع قليلاً توزيع الجريدتين. لكن الضرر كان على المدى البعيد قد وقع.

□□□

هنا حدثت ثلاثة أمور صحافية أدّت دوراً مصيرياً في أزمة السويس:

١ ـ إزاء تطور أحداث السويس يوماً بعد يوم، استعانت «الأوبزرفر» بدينغل فوت، المحامي والقانوني الضليع والنائب السابق عن حزب الأحرار في مجلس العموم (وشقيق مايكل فوت، زعيم حزب العمال في سنوات لاحقة والكاتب في صحيفة «تريبيون» اليسارية حينها، وأيضاً شقيق هيوفوت حاكم قبرص ومندوب بريطانيا باسم اللورد كارادون في الأمم المتحدة فيما بعد). وكانت افتتاحية دينغل فوت من أعنف ما كتب في إدانة احتيال سياسة حكومة إيدن وعدم شرعيتها وتواطؤها. وهاج نواب حزب المحافظين في مجلس العموم وماجوا، وأدانوا كاتبها واتهموا الجريدة وصاحبها بالخيانة. ودخلت هذه الافتتاحية، التي كانت سبباً في تقويض حكومة

إيدن فيما بعد، تاريخ حكاية السويس.

٢ ـ كان لـ«الغارديان» مراسل في الشرق الأوسط اسمه جيمس موريس(*) (اشتهر كثيراً فيما بعد) بعث من قبرص رسالة نشرتها الجريدة في صدر صفحتها الأولى في ٢٠ تشرين الثاني/نوفمبر يؤكد فيها أن فرنسا، والطيارين الفرنسيين بالذات، أدّت دوراً أساسياً في التواطؤ مع إسرائيل في الهجوم على مصر. وروى موريس على لسان

(*) جيمس موريس صحافي وكاتب إنكليزي، كان مراسلاً لعدة صحف بريطانية، منها «الغارديان» و«التايمز» في الشرق الأوسط، خلال الخمسينيات والستينيات، وأمضى سنوات عدة في معظم البلدان العربية. له عدّة مؤلفات أهمها كتاب «سوق سلوقيا» الصادر في مطلع الستينيات عن العالم العربي، وثلاثية «وداعاً للأبواق» عن سقوط الأمبراطورية البريطانية. تحول اثر عملية جراحية إلى امرأة في السبعينيات وغيّر اسمه من جيمس إلى جان. وكان قبل ذلك متزوجاً وله أولاد. وألّف عدداً من كتب الرحلات والتاريخ.

الطيارين الفرنسيين الذين التقاهم في مطار القاعدة العسكرية البريطانية في قبرص، كيف كانوا يهاجمون المصريين في سيناء وهم يطيرون فوق الأراضي الإسرائيلية ويرمون المؤن والذخائر للإسرائيليين فوق سيناء. ويقول موريس في رسالته لـ«الغارديان» إن الطيارين الفرنسيين هم الذين كانوا يقصفون بالنابالم، وبدقة متناهية، المركبات والآليات المصرية المحملة بالعتاد والجنود، والتي رآها تحترق في الصحراء. وعزا موريس انتصار إسرائيل في حرب سيناء إلى دور الطيران الفرنسي.

لكن سرعان ما نفى وزير الدفاع الإسرائيلي الجنرال موشي ديان ما ذكره موريس، كما نفت وزارتا الدفاع والخارجية لكل من فرنسا وإسرائيل هذه المعلومات. وكانت «الغارديان» أول من أشار علناً وبوضوح إلى التواطؤ البريطاني ـ الفرنسي مع إسرائيل في الهجوم على مصر. وقد نفاه إيدن ـ

كاذباً ـ أمام مجلس العموم في ٢٠ كانون الأول/ديسمبر بقوله: «ليس هناك معرفة سابقة بأن إسرائيل ستهاجم مصر».

٣ ـ الأمر الثالث، والذي جاء نتيجة للفتور بين «التايمز» وإيدن لوقوفها على الحياد، أنها نشرت خبراً هز صدقية إيدن، مفاده أن رئيس الحكومة البريطاني حاول إقناع كل من الحكومتين الفرنسية والإسرائيلية بإتلاف نسخ الاتفاق المكتوب معها والموقع في «سيفر» بباريس، وينص على تواطؤ الثلاثة في العدوان على مصر، وكيف رفضت كل من باريس وتل أبيب طلب لندن.

□ □ □

يروي أحد مؤرخي الصحافة البريطانية، أن لورنس سكوت، مدير إدارة «المانشستر غارديان» دخل على هثرينغتون، رئيس التحرير، حاملاً أخباراً سيئة

عن هبوط التوزيع وغياب الإعلان نتيجة لموقف الجريدة السياسي. وبعدما أعطى مدير الإدارة الكثير من الأرقام عن تدهور الأوضاع الاقتصادية في الجريدة، التفت إلى رئيس التحرير وقال له: أتمنى أن لا يؤثر هذا كله فيك، فتضطر إلى تغيير سياسة الجريدة. رأيك يجب أن يبقى حراً لتبقى الجريدة مؤثرة وحرة، مهما كان الثمن. القراء يعودون والإعلان يعود. لكن الحرية ستفقدها إلى الأبد إذا فرّطت فيها!

2

أسرار التواطؤ

☐ تفترض بعض المصادر البريطانية والفرنسية وسواها، وخصوصاً وزارة الخارجية البريطانية التي فتحت معظم ما في خزائنها وأرشيفها من وثائق أمام الباحثين (بموجب القانون الذي يتيح الاطلاع على أوراق الدولة بعد ٣٠ أو ٥٠ سنة على مرور زمنها)، كما تتفق معها مصادر أخرى، في أن حكاية أزمة السويس من الجانب البريطاني، قد بدأت في دائرة وزير الخارجية البريطاني سلوين لويد الانتخابية في بلدة «ويرال» في مقاطعة «شيشاير». وكان ذلك يوم ٢١ تشرين الأول/

أكتوبر من العام ١٩٥٦، عندما استدعي لويد من دائرته الانتخابية إلى «تشيكرز» المقر الريفي لرئيس الوزراء البريطاني السير أنطوني إيدن. هناك، أمره إيدن بالتوجه فوراً إلى باريس للاشتراك في اجتماع سري، هذا الاجتماع الذي ارتبط فيما بعد بأكبر كذبة في تاريخ بريطانيا المعاصرة، حمل سلوين لويد وزرها إلى الأبد. وهزّت أزمة السويس منذ تلك اللحظة الشرق الأوسط كما كان يعرف قبل نصف قرن، ومعه الإمبراطورية البريطانية ومستعمراتها.

في اليوم التالي سافر سلوين لويد سرّاً، برفقة سكرتيره الخاص دونالد لوغان، من مطار قاعدة «هيندون» العسكري، إلى مطار صغير يقع خارج باريس. وكانت الرواية التي استعملت لتغطية غياب الوزير لدى وزارة الخارجية البريطانية أن لويد معتكف لإصابته برشح. لكن وجهة سفر

لويد الحقيقية كانت فيلا في ضواحي «سيفر» Sevres للاجتماع بممثلين لكل من فرنسا وإسرائيل، حيث جرى التآمر للهجوم على مصر. وهناك ارتكبوا الغلطة التاريخية حيث سجلوا ما اتفقوا عليه في وثيقة وقعوا عليها، سميت عند اكتشافها فيما بعد، بـ «اتفاق سيفر».

عندما عرف أنطوني إيدن رئيس الحكومة، أن ما دار في اجتماع «سيفر» قد سُجّل، أمر فوراً بإتلاف النسخة العائدة لبريطانيا. وعلى الرغم من أن خبر هذه الحلقة التآمرية كان قد عمَّ وشاع، إلّا أن الاتفاق ـ الوثيقة لم يظهر للعلن إلّا بعد ٤٠ سنة كأداة «جرمية» على التآمر. حتى إن أحد مؤرخي تلك الفترة قال إن هذا الاتفاق هو «أفضل وثيقة لخطة حرب في التاريخ المعاصر». ويروي لوغان (٨٨ سنة) وهو الحي الوحيد الباقي من الذين حضروا اجتماع «سيفر»، أن لويد كان في

أتعس حالاته، متضايقاً من تكليفه هذه المهمة. وكان أحد أهم أسباب الضيق الذي شعر به لويد، هو أنه كان يقوم بتنظيم حملة اتصالات ديبلوماسية مع الرئيس جمال عبد الناصر منذ تأميم شركة قناة السويس في ٢٦ تموز/ يوليو لمنع تهديد مكانة بريطانيا ومصالحها في المنطقة، وعلى رأسها إمدادات النفط إلى أوروبا. وجاء هذا الاجتماع ليقضي على خطة لويد الديبلوماسية. كل هذا في الوقت الذي كان فيه إيدن قد «روكبَ» على عبد الناصر، فساعة يقارنه بهتلر وساعة أخرى يشبّهه بموسوليني.

كان مبعث الخوف لدى الغرب من الاستيلاء على قناة السويس هو أن تكون بداية حملة لطرد النفوذ الغربي كلياً والمصالح الغربية نهائياً من البلاد العربية. كما كان الخوف المعلن في الولايات المتحدة في أيلول/ سبتمبر، هو أن يؤدي نجاح

تأميم القناة إلى قيام وحدة عربية بزعامة مصرية ورعاية سوفياتية. وكان هذا هو رأي الرئيس الأميركي الجمهوري دوايت أيزنهاور الذي كان يصرّح به. إلّا أن الجنرال الأميركي وبطل الحرب العالمية الثانية، كان يريد تطويق هذه المخاوف الغربية بوسائل سياسية وبحلول سلمية لا بواسطة عمل عسكري.

□□□

في أواسط تشرين الأول/ أكتوبر بدت الحرب وكأنها أمر لا مفر منه، بالدرجة الأولى بسبب التعنت الذي كان يمارسه التحالف بين فرنسا وإسرائيل، اللتين كانتا تدعوان إلى حرب وقائية على مصر، وخاصة إسرائيل التي تعرضت لسلسلة من المناوشات على الحدود المصرية ــ الإسرائيلية في الأشهر التي سبقت تأميم القناة. أما غي موليه، رئيس وزراء فرنسا الاشتراكي، فقد كان مستقتلاً

لإيقاف مصر عن دعم ومساعدة الثورة ضد فرنسا في الجزائر. وكانت الاتصالات الفرنسية ــ الإسرائيلية تتمّ عبر قنوات خلفية في باريس وتل أبيب، بواسطة وزير الدفاع الفرنسي موريس بورغيس ــ مونوري، أحد أبطال المقاومة ضد الاحتلال النازي لفرنسا، ووزير الخارجية الفرنسي كريستيان بينو، الذي سجن خلال الحرب العالمية الثانية في أحد المعتقلات النازية في بوشنوالد، وبحكم هذه الخلفية السياسية المعادية للنازية لكل من الرجلين، كان هذا التعاطف الفرنسي مع إسرائيل في حرب السويس. أما بريطانيا، ولم يكن قد مرّ على انسحابها من فلسطين إلّا ثماني سنوات، فكانت بالمقابل ترتاب كثيراً من أية علاقة بإسرائيل، إلى درجة أنها كانت تعدّ لخطة هجومية على إسرائيل إذا شنّت هذه حرباً على الأردن.
وسط هذا التناقض في المواقف من إسرائيل بين الحميمية الفرنسية من جهة والبرود الإنكليزي من

جهة ثانية، جاءت فرنسا لتقوم بدور «الخاطبة» التي قربت بين لندن وتل أبيب، لتربطهما في مصلحة واحدة ضد مصر عبر اتفاق «سيفر».

وكان إيدن قد عقد اجتماعاً سرياً في ١٤ تشرين الأول/ أكتوبر مع مبعوثين فرنسيين، شطبا اسميهما من دفتر الزوار في مقره الريفي في «تشيكرز» بأمر منه. ونبّه إيدن سكرتيره الخاص، غاي ميلارد، الذي حضر اللقاء، من تدوين ما دار في الاجتماع، محذراً بأن «لا داعي لذلك» ــ كما جاء في مذكراته. وبعد ثمانية أيام من هذا اللقاء، وصل سلوين لويد إلى منزل في شارع «إمانيول جيرو» في باريس، كان يستعمل بيتاً سرياً في الحرب العالمية الثانية لإخفاء رجال المقاومة الفرنسية ضد الاحتلال النازي، ليجد أن اجتماعاً قد بدأ بحضور دافيد بن غوريون رئيس وزراء إسرائيل وموشي ديان وزير الدفاع، اللذين كانا

كلاهما يشككان بنوايا بريطانيا وسياستها. ولفت نظر لويد أن ديان أخذ يرسم على ظهر علبة سجائر خطة عملية غزو القناة. ويقول مورداخاي بار ــ أون، مساعد ديان، وأحد الباقين على قيد الحياة منذ ذلك الاجتماع، إن الوجوم قد خيّم على وجه لويد، وكأنه شعر بمغص حاد معتبراً أن المشهد كله كان بشعاً.

في ٢٤ تشرين الأول/ أكتوبر، عاد وزير الخارجية الفرنسي كريستيان بينو إلى باريس من زيارة لإيدن في لندن، حيث وضع الفرقاء الثلاثة بروتوكولاً بالفرنسية طبع على الآلة الكاتبة في مطبخ البيت إياه. وتتعهد إسرائيل بموجب هذا البروتوكول بالهجوم على مصر، وأن تتخذ بريطانيا وفرنسا هذا الهجوم ذريعة لغزو مصر تحت ستار فصل المتحاربين لحماية قناة السويس. وكان فصل المتحاربين يعني في هذا البروتوكول إسناداً ودعماً

جوياً وبحرياً للقوات الإسرائيلية من بريطانيا وفرنسا أثناء هجوم إسرائيل على مصر. وكان من المفترض أن تبقى وثيقة هذا الاتفاق «سرّية للغاية»، وقد وقّعها عن الجانب البريطاني باتريك دين، كبير موظفي الخارجية البريطانية في حينه، الذي وجد أن جو الاجتماع لم يكن ودياً بما فيه الكفاية. وما إن غادر الجانب البريطاني الاجتماع، حتى بدأت محادثات بين فرنسا وإسرائيل في البيت نفسه حول التعاون النووي بين البلدين.

□ □ □

عند عودة الوزير البريطاني إلى لندن، أمر إيدن بإتلاف البروتوكول المكتوب، قبل أن يجف حبر التواقيع عليه، وأحرق نورمان بروك أمين عام الحكومة، النسخة البريطانية من الاتفاق، مع أوراق أخرى لها علاقة بالتآمر الثلاثي كيلا يبقى شيء يدين بريطانيا. أحرق نورمان بروك هذه الأوراق

في مدفأة «١٠ داونينغ ستريت» مقر رئاسة الوزارة البريطانية. وفي الوقت نفسه، أمر إيدن عضو الوفد البريطاني الذي جاء بنسخة البروتوكول الإنكليزية، بالعودة فوراً إلى باريس لإقناع الجانب الفرنسي بحرق النسخة العائدة لهم. لكن الفرنسيين تركوا الوفد البريطاني ينتظر لساعات طوال في غرفة الانتظار في «الكي دورسيه»، قبل أن يقابله بينو. واعتذر وزير الخارجية الفرنسي للبريطانيين عن إحراق نسخة بلاده من البروتوكول. أما الجانب الإسرائيلي فكان قد غادر باريس عائداً إلى بلاده حاملاً نسخته من الاتفاق قبل وصول الديبلوماسيين البريطانيين. وعاد الوفد إلى لندن بخفّي حنين.

ولم يعد من الممكن الحفاظ على سرّ إيدن، فمنذ أن بدأت إسرائيل بالهجوم على صحراء سيناء في ٢٩ تشرين الأول/ أكتوبر حسب

الجدول المتفق عليه، اعتبرت كل الأوساط السياسية المراقبة في العالم أن هذا الهجوم معدّ سلفاً، وأن التواطؤ بين بريطانيا وفرنسا وإسرائيل واضح جداً في العمليات العسكرية. حتى إن ديبلوماسياً في السفارة البريطانية في واشنطن اتصل بلويد عشية بدء الهجوم، ليقول له إن «سي.آي.إي.» لديها معلومات مؤكدة عن هذا التواطؤ، وأنه، أي الديبلوماسي البريطاني، يحتاج إلى معلومات من وزيره لدحض تهمة التواطؤ لدى إدارة أيزنهاور الأميركية. حتى إن أيزنهاور قال لوزير خارجيته جون فوستر دالاس، إن بريطانيا قد «خدعته». في الوقت نفسه، حافظ لويد على موقفه في نفي تهمة التواطؤ عن رئيسه وحكومته في مجلس العموم. وكرر إيدن نفيه كاذباً في مجلس العموم، ليؤكد أن ليس هناك أي اتفاق مسبق مع فرنسا وإسرائيل للهجوم على مصر. وكان ذلك في ٢٠ كانون الأول/ ديسمبر، آخر

مرة يقف فيها إيدن في مجلس العموم، قبل أن يقدم استقالته.

ويقول بار ــ أون، مساعد ديان، الذي احتفظ بمذكرة تفصيلية عن اجتماعات «سيفر»، والتي بقيت سرية لمدة ٣٥ عاماً، احتراماً لموقف وذكرى إيدن، إن بن غوريون خصوصاً وإسرائيل عموماً، لا سبب لديهما للحفاظ على سرّية هذا الاتفاق. وكان بن غوريون يقول إن من مصلحة إسرائيل أن تعلن عن اتفاق «سيفر» وتنشر تفاصيل البروتوكول حتى لا تبدو وكأنها هي وحدها التي قامت بهذا الاعتداء. إلّا أن لوغان، سكرتير لويد إبّان الأزمة، حصل بعد سنوات عديدة على نسخة من إسرائيل عن بروتوكول «سيفر» وأودعه في الأرشيف الوطني البريطاني في منطقة «كيو» في لندن. وبذلك اكتملت وثائق مرحلة حرب السويس. وقد وصف أحد المؤرخين هذا الاتفاق

بأنه «صورة عن انتهازية فرنسا، وتحايل بريطانيا، وهلع إسرائيل».

ويروي أحد مؤرخي تلك الفترة، في إشارة إلى اختلاف السياسات والنتائج بين كل من بريطانيا وفرنسا، أنه في مصادفة عجيبة كان كونراد أديناور مستشار ألمانيا الغربية، في زيارة لباريس في ٦ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥٦، للتفاوض بشأن «معاهدة روما» التي أوجدت السوق الأوروبية المشتركة وأسست فيما بعد للاتحاد الأوروبي. وبينما كان أديناور جالساً عند غي موليه، رئيس الحكومة الفرنسية، اتصل أنطوني إيدن رئيس الحكومة البريطانية هاتفياً بنظيره الفرنسي، ليبلغه أنه قرر التراجع عن استمرار الحرب في السويس وأنه وافق على وقف لإطلاق النار بناء على ضغط أميركي لم يستطع مقاومته، أدى إلى انهيار الجنيه الاسترليني، بعدما رفضت واشنطن إقراضه من

صندوق النقد الدولي. وصرخ أديناور عندما أبلغه موليه بما قاله إيدن: «لا وقت لنضيّعه. الآن هو وقت بناء أوروبا». «أوروبا ستنتقم لكم». وكانت لحظة تاريخية لا مثيل لها.

□ □ □

يقول كيث كايل، أحد أهم مؤرخي أزمة السويس، إن المشكلة في اجتماعات «سيفر» ليست في أنها كانت سرّية، والسرّية جزء من العمل الديبلوماسي، ولا لأنها كانت مع إسرائيل، ولإسرائيل قبول واسع في أوساط المعارضة الرسمية واليسار في العام ١٩٥٦، ولا لأن الموقف السياسي الذي اتخذته قد فشل. بل المشكلة في سقوط الاتفاق وفشله يعود إلى سببين. الأول أن بريطانيا كانت العنصر الأساسي في الاعتداء بصفتها الأكبر والأهم. والثاني أن الحكومة البريطانية كذبت على شعبها ونوابه وأحزابه ونقاباته إذ نفت

التواطؤ، وزعمت أن دعوة القوات البريطانية إلى إعلان الحرب كانت دفاعاً عن مصالح بريطانيا، وقد تمَّ ذلك بالخديعة والمواربة والكذب حتى النهاية.



عناوين الصحف البريطانية
خلال أزمة السويس



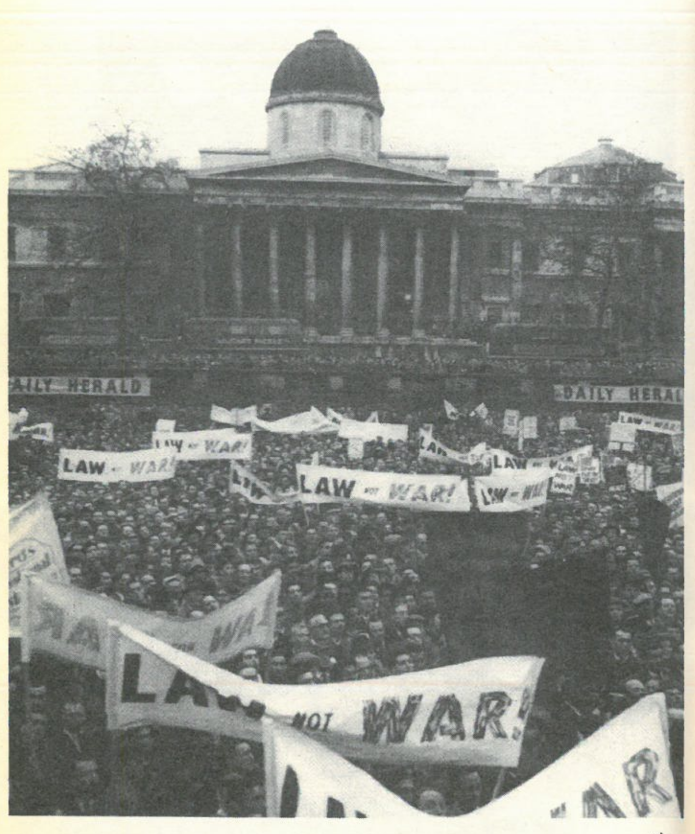
جمال عبد الناصر محمولاً على الأكتاف
بعد الانسحاب البريطاني - الفرنسي،
معلناً انتصاره في حرب السويس



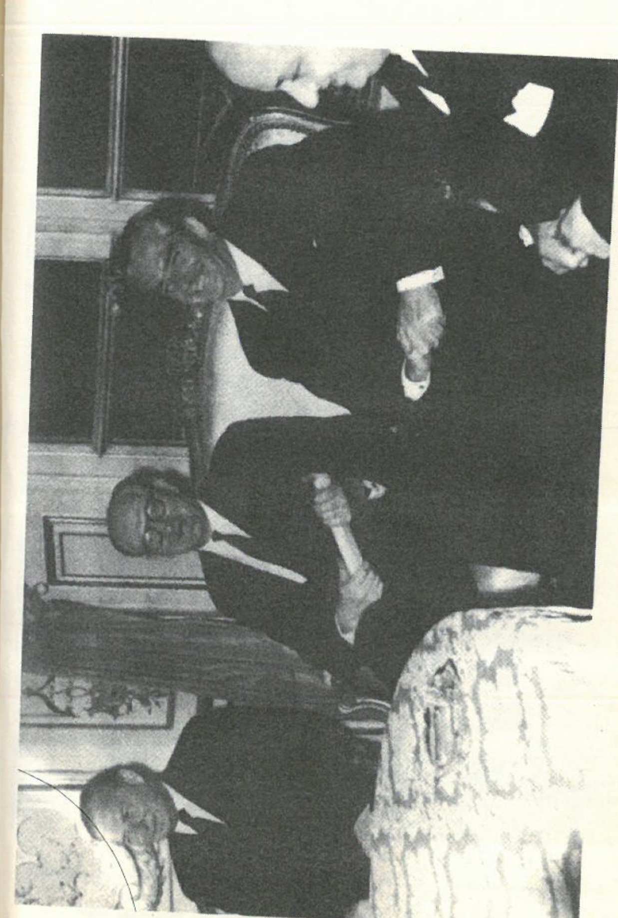
أنطوني إيدن وجمال عبد الناصر عند اجتماعهما لأول مرة
وآخر مرة في القاهرة في شباط/فبراير ١٩٥٥



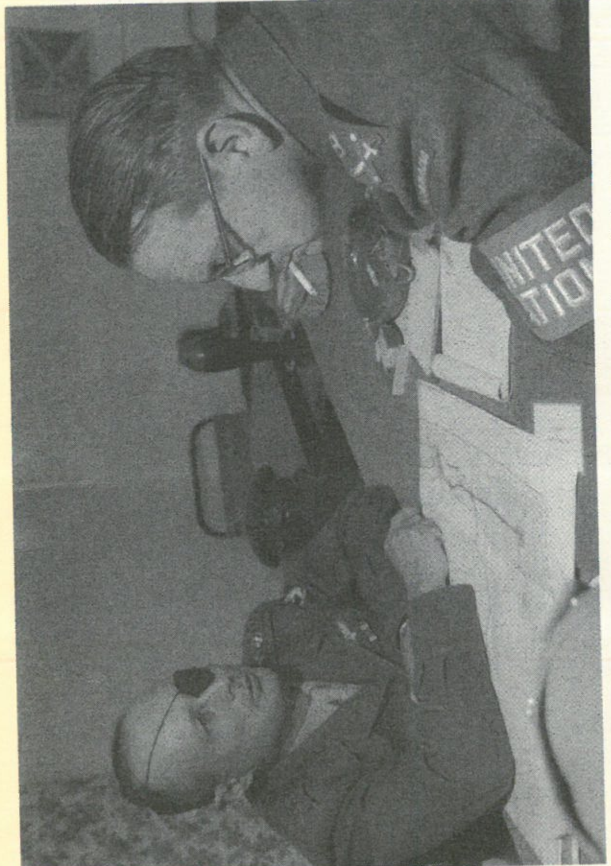
أنطوني تاتينغ وجمال عبد الناصر يتصافحان بعد توقيع الاتفاق البريطاني - المصري على الجلاء عن قناة السويس في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٤



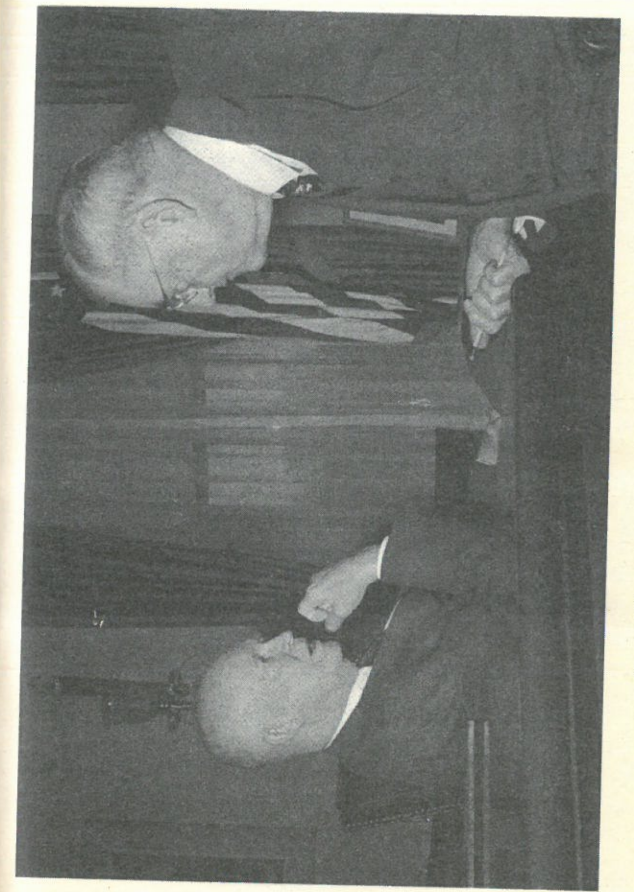
تظاهرة «ساحة الطرف الآخر» في لندن ضد سياسة الحكومة البريطانية والحرب في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٥٦



(من اليسار إلى اليمين) رفاق السلاح:
سلوين لويد، غي موليه، أنطوني إيدن، كريستيان بينو



الجنرال موشي ديان مع قائد قوات الأمم المتحدة
الجنرال بيرنز أثناء مفاوضات الانسحاب



الرئيس دوايت إيزنهاور مع وزير خارجيته
جون فوستر دالاس أثناء أزمة السويس

3

العشاء الأخير

□ وضعت أزمة السويس قبل خمسين سنة، حدّاً فاصلاً بين عهدين. عهد انتهى وعهد بدأ لكل من بريطانيا وأوروبا والولايات المتحدة في الشرق الأوسط. أما ما حدث نتيجة لذلك في العالم العربي فكان البركان الذي فجّر الانقلابات والثورات على الأنظمة الحاكمة وغيّر ما غيّر من تحالفات العرب مع دول العالم، أكثر مما غيّر من حكّامه. كانت أزمة السويس بداية نصف قرن من صراعات وحروب وغزوات واغتيالات أدت إلى الصورة التي نحن فيها اليوم.

حكمت بريطانيا مصر من العام ١٨٨٢ إلى العام ١٩٢٢، عندما مُنحت استقلالاً صورياً، استمرت بريطانيا من خلاله في حكم مصر وتقرير سياستها والحفاظ على قوات عسكرية في أراضيها، وخاصة في منطقة القناة، ودعم النظام الملكي، حتى قيام جمال عبد الناصر بثورته في ٢٣ تموز/ يوليو العام ١٩٥٢. ومَنْ يقرأ اليوم خطاب عبد الناصر في الاسكندرية الذي ألقاه يوم تأميم القناة في ٢٦ تموز/ يوليو ١٩٥٦، يجد فيه وبعد كل هذه السنين، مطالعة تاريخية لماضي مصر ودور الاستعمار الأوروبي في ما آلت إليه أوضاعها من سوء عبر حكاية القناة، مردداً اسم المهندس الفرنسي فيردينان دو لاسبس ثلاث عشرة مرة في خطابه، لا تذكيراً بأمجاده أو تكريماً له، بل كنوع من الإشارة المرمّزة إلى مَنْ كلفهم القيام بعمليات التأميم والسيطرة على منشآت القناة. وكان هذا اليوم التاريخي بداية

النهاية المذلة لأكبر قوتين استعماريتين أوروبيتين هما بريطانيا وفرنسا.

وأخذت حجارة الأمبراطورية تنهار. فقد أنطوني إيدن رئيس الوزراء البريطاني مركزه واستقال. تفككت الجمهورية الرابعة في فرنسا وعبر منها الجنرال شارل ديغول إلى الجمهورية الخامسة. كانت اشارات الانهيار واضحة حتى لغلاة الاستعماريين، عندما أضحت أميركا هي القوة العظمى المسيطرة على التحالف الغربي. وبدأ السعي عند العديد من الأوروبيين نحو إيجاد قوى أوروبية بديلة أصبحت فيما بعد كيان الاتحاد الأوروبي، كما نعرفه اليوم.

في الجانب الآخر، دفعت أزمة السويس بفكرة القومية العربية إلى الانتشار، وحوّلت القضية الفلسطينية إلى صراع عربي - إسرائيلي. إنما الأخطر أن أزمة السويس قد ألهت العالم عما كان

يجري داخل دول أوروبا الشرقية التابعة للاتحاد السوفياتي، مفسحة في المجال لموسكو لإخماد ثورة المجر وقمع شعبه في الوقت ذاته من العام ١٩٥٦، حيث كانت أنظار العالم موجّهة نحو الشرق الأوسط.

□ □ □

من سخرية التاريخ، أن إيدن عرف بقرار تأميم عبد الناصر لقناة السويس ليلة ٢٦ تموز ١٩٥٦ بالذات خلال عشاء كان يقيمه في «١٠ داوننغ ستريت»، على شرف الملك فيصل الثاني ملك العراق، الذي كان في زيارة رسمية لبريطانيا.

كان ذلك عندما دخل عليه سكرتيره الخاص عند الساعة العاشرة ليلاً، ليخبره بما قاله عبد الناصر في خطابه بالإسكندرية. ونهض الجميع من العشاء ليتفرقوا في الغرف الجانبية لمقر رئيس الوزراء

البريطاني، يتبادلون الآراء في هذا الحدث الخطير.

وكان من بين المدعوين إلى العشاء، إلى جانب ملك العراق الشاب، الوصي على العرش الهاشمي السابق وولي العهد في حينه، خال الملك الأمير عبد الإله، ورئيس الوزراء العراقي نوري السعيد. كذلك كان هناك أربعة وزراء أعضاء في حكومة إيدن، بينهم سلوين لويد وزير الخارجية وأيضاً زعيم حزب العمال المعارض هيو غيتسكيل، بصفته زعيم المعارضة الرسمية، وعدد من كبار شخصيات المؤسسات البريطانية الحاكمة. وما إن انتهى العشاء حتى طلب إيدن استدعاء عدد من الوزراء من غير المدعوين ورئيس أركان القوات المسلحة وبعض كبار العسكريين، الذين كانوا موجودين ذلك المساء في مناسبات اجتماعية أخرى في أنحاء متفرقة من العاصمة البريطانية، للتداول في قرار التأميم. وكان جو الاستشارات بعد ذلك العشاء،

حامياً إن لم يكن حماسياً، وكان هناك شبه إجماع على ضرورة التصدي لخطوة تأميم القناة.

كان الشعور السائد في تلك الاجتماعات، أن عبد الناصر بعمله هذا قد وضع يده على «زلعوم» بريطانيا ولن يتردد في خنق مصالحها في الشرق الأوسط. حتى إن زعيم المعارضة هيو غيتسكيل قال في مداولات ذلك المساء، إن الرأي العام البريطاني سيؤيد أي عمل قوي وسريع ضد عبد الناصر.

وشارك نوري السعيد، رئيس الحكومة العراقية، غيتسكيل الرأي، وقال لإيدن وهو يغادر «١٠ داونينغ ستريت» في الهزيع الأخير من تلك الليلة، بأن عليه أن يضربه (أي عبد الناصر) بقوة. ولم ينس ذلك الثعلب السياسي العتيق، أن يحذر إيدن من أن تقوم بريطانيا بأي عمل عسكري ضد مصر بالتواطؤ مع إسرائيل.

لكن ما كان من أنتوني تاتينغ، وزير الدولة لشؤون الشرق الأوسط في وزارة الخارجية (الذي استقال فيما بعد احتجاجاً على سياسة إيدن وأصبح من كبار أصدقاء عبد الناصر وكتب كتاباً هاماً عنه) إلّا أن قال، موجهاً كلامه إلى نوري السعيد: «إن هذا جنون». وكان نوري السعيد أخلص أصدقاء بريطانيا في الشرق الأوسط. ومرت سنتان على حرب السويس قبل أن يقتل الملك والوصي ونوري السعيد سحلاً في شوارع بغداد عند قيام الثورة العراقية في ١٤ تموز/ يوليو من العام ١٩٥٨، ومن قبل أن يصل البعث إلى السلطة في العام ١٩٦٣.

كثيرون من أفراد الشعب البريطاني كانوا يشاركون، ولو بغصة أو على مضض، هذه المقولة. وكما عبّر أنطوني ناتينغ، وزير الدولة للشؤون الخارجية البريطانية بقوله: «لقد جعلنا في أزمة

السويس من عبد الناصر شهيداً وبطلاً، ورفعناه إلى سدة المجد وجعلنا له مكانة وقوة ما كانت لأحد في العالم العربي منذ مطلع القرن التاسع عشر».

بوصول عبد الناصر إلى قمة سلطاته واتساع نفوذه، بدأت الحكومة البريطانية، عبر سفاراتها في الخارج، تعدّ الخسائر التي منيت بها مصالحها وسياستها وتحسب حساب المزيد من الأضرار التي ستلحق بها، وقد أخذ اسم عبد الناصر يهدر عبر المنطقة، من تونس إلى الدار البيضاء، ومن بغداد إلى عمّان والقدس، ومن دمشق إلى عدن والبحرين وسائر بلدان الخليج. وخرجت الجماهير العربية في كل مكان فيه وجود بريطاني على أرض عربية تندد بالمجازر التي ارتكبتها القوات البريطانية في بورسعيد.

وازداد خوف بريطانيا بازدياد حجم عبد الناصر، حتى إن أحد الديبلوماسيين البريطانيين

كتب يقول: «إن عبد الناصر جعل صوت نبضات قلب القاهرة يُسمع في كل عاصمة عربية، من المحيط الأطلسي إلى الخليج الفارسي». حتى إن ملك الأردن، الملك حسين، الذي كانت تمول الخزانة البريطانية مملكته في ذلك الوقت، شبّه ما حدث في المنطقة بعد السويس بـ «صاعق كهربائي قوي مسّ البلاد». حتى إن المخابرات البريطانية اتهمت بعد مرور وقت طويل على انسحاب بريطانيا وفرنسا من منطقة قناة السويس، عبد الناصر بأنه كان يدفع بواسطة عملائه مبالغ مالية نقداً وبـ «الشنط» إلى سياسيين عرب لزعزعة أنظمة الحكم في بلادهم.

وبدأ تراكم الخسائر البريطانية. في شباط/ فبراير ١٩٥٨ أعلن عبد الناصر الوحدة بين مصر وسورية تحت اسم الجمهورية العربية المتحدة. وبعد أشهر، في تموز/ يوليو ١٩٥٨ قامت الثورة العراقية في

بغداد التي قضت، في حمام دم، على الأسرة الهاشمية المالكة، معلنة قيام الجمهورية على غرار الطراز المصري، قبل أن يسرق حزب البعث تلك الثورة ويورثها لنظام صدام حسين.

□ □ □

سجّل الانسحاب المذلّ لكل من بريطانيا وفرنسا من غزو قناة السويس بالتواطؤ مع إسرائيل، قبل نصف قرن نقطة مفصلية في تراجع بريطانيا السياسي وبداية تفكك إمبراطوريتها المترامية الأطراف. فكانت النتيجة أن ألزمت بريطانيا نفسها عدم القيام بأي عمل عسكري خارجي من دون إذن الولايات المتحدة، كذلك موافقة الأمم المتحدة إن أمكن.

وكان الانقسام الحاد الذي أحدثته حرب السويس في المجتمع البريطاني، بين «الاستعماريين

القدامى» الذين يؤمنون باستعمال القوة لحماية ما يعتقدون أنه لمصلحة بلادهم وبين «المتحررين الجدد» الذين يرفضون استعمال القوة ويدعون إلى التخلي عن المستعمرات وتحرير شعوبها. (مع العلم أن ذكريات الأمبراطورية ومستعمراتها كانت لا تزال طرية في العام ١٩٥٦، وأنه لم يكن قد مضى على استقلال الهند ـ جوهرة التاج البريطاني ـ في العام ١٩٤٧، أكثر من عقد واحد من الزمان). وقد تكرر هذا الانقسام، بأطياف مختلفة في العام ٢٠٠٣ عند الغزو الأميركي للعراق. فمن كان معادياً للاستعمار في العام ١٩٥٦، سُرّ لهزيمة بريطانيا في السويس، لاعتقاده أن الإمبراطورية كانت ظالمة ومستغلة لشعوبها، كان معارضاً أيضاً للغزو الأميركي ـ البريطاني للعراق.

4

من إيدن إلى بلير

□ بعد نصف قرن ما زال المصريون والعرب يتذكرون «العدوان الثلاثي» على قناة السويس، الذي قامت به القوتان الاستعماريتان في ذلك العصر: بريطانيا وفرنسا، بالتحالف مع إسرائيل وبتحريض منها، وكان ثاني أقصر نزاع عسكري في تاريخ الشرق الأوسط الحديث (كان النزاع الأقصر حرب حزيران/يونيو ١٩٦٧ فيما بعد). ومع أنه ترك أبشع طعم بالمرارة في ذاكرته، فقد ترك لمصر في الوقت نفسه، أمجاداً وطنية وبطولات رائعة أعادت لذلك الشعب الكثير من

الكرامة التي كان قد فقدها في سنوات سابقة من الحكم الملكي والوصاية الاستعمارية البريطانية. كان ذلك نتيجة لمؤامرة حرب فاشلة، وكانت بداية أفول الكولونيالية القديمة.

□□□

غزت بريطانيا دولة عربية كان يحكمها رجل وصفه رئيس وزرائها بأنه ديكتاتور يشبه هتلر. هذا الرجل كان يدعم الإرهاب، بقدر ما كان يهدد المصالح الحيوية الغربية في الشرق الأوسط. كان ذلك قبل نصف قرن تماماً، عندما قام أنطوني إيدن بالرد على قرار جمال عبد الناصر تأميم قناة السويس. هذا العمل يشبه تماماً ما فعله خليفته طوني بلير، بعد خمسين سنة، بغزوه دولة عربية أخرى، هي العراق بتهم مماثلة. في مصر عبد الناصر قامت بريطانيا بغزو مصر من دون علم ودعم أميركا. في عراق صدام حسين قامت

بريطانيا بغزو العراق تحت جناح أميركا وبموافقتها. وكانت الحجج الاتهامية للغزو مماثلة لكلا البلدين: الديكتاتورية، تهديد المصالح الغربية، الإرهاب.

يا لها من مفارقة.

كان إيدن، الذي خدم في حكومة ونستون تشرشل وزيراً لخارجية بريطانيا خلال الحرب العالمية الثانية، يشبّه عبد الناصر دائماً بهتلر، كما كان يفعل غيره من زعماء بريطانيا (هيو غيتسكيل زعيم حزب العمال مثلاً). كان إيدن ورفاقه من الجيل الذي عرف وعانى من هتلر في ألمانيا النازية وموسوليني في إيطاليا الفاشية. إلّا أن بلير الذي ينتمي إلى حقبة أخرى من التاريخ، استعار بعد نحو خمسة عقود، هتلر من خزانة الأشباح في متحف إيدن ليقارنه بصدام حسين عندما غزا العراق.

كان إيدن يصف للرئيس الأميركي أيزنهاور الوضع في البلاد عند بدء أزمة السويس، بأنه مقلق وأنه «أشد خطراً على البلاد منذ العام ١٩٤٠». كان إيدن لا يطيق أن يتذكر «عار ميونيخ»، عندما هادنت حكومة بريطانيا بزعامة نيفيل تشامبرلين، النازيين، في لقاء مع هتلر في ميونيخ في منتصف الثلاثينيات. مما اضطر إيدن للاستقالة منها في العام ١٩٣٨. وأدّت هذه المهادنة إلى توسع هتلر في شرق أوروبا، وإلى الحرب العالمية الثانية، التي تلت ذلك. وإذا ببلير، بعد نحو خمسين سنة، يستعير من خزانة إيدن مجدداً شبح «عار ميونيخ»، ليقول قبل أيام من غزو العراق إن بريطانيا ستواجه «كابوساً مرعباً» لا تستطيع تحمله إذا هادنت صدام حسين. يا للمقارنة!

وخضع بلير، كما خضع إيدن من قبله، إلى

قراءة مغلوطة للتاريخ، عادة ما تصيب القادة السياسيين في أوقات الأزمات. ونتيجة لهذه القراءة المغلوطة أصرّا على الاستمرار بمغامراتهما العسكرية، أخفى كل من إيدن وبلير عن زملائهما في الحكومة، حقيقة ما كان يعد له ويجري في كل من مصر والعراق. إيدن أخفى عن وزرائه تواطؤه مع فرنسا وإسرائيل في العمليات العسكرية ضد مصر لإسقاط نظام عبد الناصر. وبلير أخفى عن وزرائه وعن نواب حزبه ما كان قد اتفق عليه مسبقاً بصفته الشخصية مع الرئيس الأميركي جورج بوش، بأنه سيشارك مع القوات الأميركية في غزو العراق، من قبل أن يستشير زملاءه ومضللاً مجلس العموم. وكما إيدن، كما بلير، أقنعا أنفسهما بالاعتماد على معلومات استخباراتية «ملعوب فيها» غير موثقة وغير مقنعة.

كانت الآراء في أوساط الحكومة البريطانية في

«هوايتهول» أن غزو مصر كان خطأ، لا مبرر قانونياً له. يضاف إلى ذلك خديعة التواطؤ التي لم تكن معروفة عند الغزو في حينه. وهذا مما سبب مزيداً من القلق والتجاذب في تلك الأوساط، إضافة إلى التعتيم الذي كان قد فرضه إيدن على السياسيين وكبار المسؤولين الحكوميين. إلى درجة أن وزارة الخارجية البريطانية كانت شبه معطلة في أحرج الأوقات. وكان هارولد بيلي، كبير الديبلوماسيين في وزارة الخارجية وأول سفير لبريطانيا في مصر بعد عودة العلاقات عند انتهاء أزمة السويس، يقول: «إن مجرد الفكرة باتخاذ قرار بهذه الخطورة والأهمية (أي غزو مصر) من دون الاستعانة بآراء محامين في القانون الدولي، وخبراء في شؤون الشرق الأوسط، كان أمراً فظيعاً وغير عادي».

ويقول دونالد لوغان، سكرتير سلوين لويد

الذي حضر اجتماعات «سيفر» السرية، إن إيدن كان يعقد الاجتماعات مع مجموعة صغيرة محيطة به من دون تسجيل أي محاضر. وكانت هذه المجموعة المحيطة بإيدن كلها تؤمن بأن عبد الناصر هو هتلر آخر يجب إيقافه. وسيقت اتهامات مماثلة ضد بلير في بدء الحرب على العراق من قبل اللورد بتلر، المسؤول الحكومي الذي كُلّف التحقيق في صحة تقارير المخابرات البريطانية عن العراق، التي كانت تقدم لبلير.

وللمقارنة مجدداً، اصطدمت حكومة بلير بهيئة الإذاعة البريطانية (بي.بي.سي.) في العام ٢٠٠٣، كما اصطدمت بها حكومة إيدن في العام ١٩٥٦. وفي كلتا الحالتين حاولت الحكومة الضغط على الإذاعة البريطانية لوقف تغطية الأخبار والتعليقات والأحاديث المنتقدة لسياسة الحكومة. وحاولت إصدار قانون يعطل استقلالية الإذاعة، لكنها فشلت

كسابقتها من قبل. وكان لورد مونتباتن، أمير البحر وقائد البحرية البريطانية السابق، وابن عم إليزابيت، ملكة بريطانيا (الذي اغتاله جيش التحرير الإيرلندني في السبعينيات) يقول تعليقاً على حرب السويس في العام ١٩٥٦ «لا يمكنك محاربة الأفكار بواسطة الجيوش والسلاح».

كذلك كان اللورد بويس، رئيس هيئة أركان الحرب البريطانية يبدي قلقه علناً في معرض تعليقه على حرب العراق في العام ٢٠٠٣، لعدم شرعية الغزو البريطاني للعراق والفشل التام في الاستعداد لما ستؤدي إليه نتائج هذه الحرب. وإذا كانت كل من حرب السويس وحرب العراق قد أدتا إلى إشكالات ضخمة في الرأي العام المحلي والعالمي، فقد أدّتا أيضاً إلى انقلاب خطير في عالم المخابرات وجمع المعلومات. فالمخابرات البريطانية (MI6) اصطدمت بشخص مديرها عندما طلب

إيدن منه السعي إلى إسقاط عبد الناصر ونظامه. وكذلك اصطدم بلير بعد نصف قرن بالمخابرات البريطانية ذاتها عندما طلب منها تأكيد وجود أسلحة دمار شامل في العراق. ونتيجة للأزمتين، ازداد التواصل والتقارب والتنسيق مع المخابرات الأميركية.

قبل خمسين سنة كانت واشنطن تعارض التدخل العسكري، وهذا ما علّم الحكومة البريطانية درساً. وعندما خلف هارولد مكميلان أنطوني إيدن في رئاسة الوزراء، قاد بريطانيا إلى علاقات ثنائية خاصة مع أميركا وحلف دفاعي واضح مشترك. وعندما جاء طوني بلير إلى الحكم، وأزف موعد حرب العراق، استغل بلير هذه العلاقة من دون أي تساؤل أو تردد، للدخول على حصان أبيض مع واشنطن إلى بغداد.

يا للمفارقة!

5

تاريخ ما نسيه الناس

□ كيف كان المشهد السياسي قبل أزمة السويس وخلالها وبعدها؟

في مصر، كان البريطانيون قد أصبحوا مكروهين إلى درجة كبيرة بسبب تصرفاتهم العنصرية الرعناء، حتى إن ونستون تشرشل، الاستعماري الأول ورجل الأمبراطورية (الذي استقال في العام ١٩٥١ وسلّم الحكومة إلى أنطوني إيدن) أخذ يشعر في العام ١٩٥١ بأنه لم يعد من الممكن مقاومة المدّ الوطني المعادي للاستعمار، عندما تكوّنت مقاومة مصرية مسلحة

أخذت تهاجم القوات البريطانية ومعسكراتها في منطقة قناة السويس. وما إن مرّت أربع سنوات على قيام الثورة المصرية، حتى كانت القوات البريطانية قد جلت عن منطقة القناة وعموم مصر في حزيران/يونيو من العام ١٩٥٦. وعلى الرغم من ذلك لم تتحسن العلاقات المصرية - البريطانية.

من جهة ثانية، كان جمال عبد الناصر مهموماً بتدبير تمويل بناء السد العالي بعدما سحبت الولايات المتحدة يدها منه. وبينما كان موضوع السد أساسياً في مشروعات عبد الناصر لتحديث مصر، كان رأي جون فوستر دالاس، وزير الخارجية الأميركي، أن مشروع السد سيشكل عبئاً مالياً كبيراً على اقتصاد مصر لا تستطيع تحمله.

كانت هذه صورة الأوضاع قبل الحرب، أما بعدها فتغيّرت الصورة كلياً. خرج عبد الناصر من

أزمة السويس منتصراً أساسياً. قبل الحرب كان نظامه يواجه معارضة عنيفة داخل مصر، من الأخوان المسلمين ومن الشيوعيين إلى جانب الطبقة السياسية الحاكمة في العهد الملكي، وغيرها من التنظيمات الصغيرة المعارضة الأخرى. بعد الحرب سقطت هذه المعارضات كلها لأنه أصبح البطل الوطني الذي استطاع «أن يشد الأسد البريطاني من ذيله». واتسعت شعبيته في العالم العربي كله. وأصبح رائد القومية العربية وأسد العروبة وبطل حركات التحرير في العالم الثالث.

ودفع انتصار السويس عبد الناصر إلى خوض مغامرات عدة، بدءاً بالوحدة بين مصر وسورية وإرسال قوات عسكرية مصرية إلى اليمن لدعم ثورة الجمهوريين هناك ضد الملكيين، وإرسال قوات إلى الكويت للتصدي لتهديدات عبد الكريم قاسم بضم الكويت إلى العراق، وقوات أخرى إلى

الكونغو لدعم ثورة لومومبا. وساقه نجاح تأميم القناة إلى تأميم الصناعة في مصر والاستيلاء على الشركات الكبرى. وألهمت سياسات ومواقف عبد الناصر هذه العديد من الزعماء العرب الذين قاموا بتقليد زعامته ومؤسسات حكمه، من التأميم إلى المخابرات. ولم يوقف صعود عبد الناصر ونجاحاته إلا هزيمة حرب ١٩٦٧ أمام إسرائيل. فانقلبت الأوضاع، وخفّ وهج الناصرية، إنما بقي هو في الذاكرة العربية إلى اليوم. لكن النصر الذي حققه عبد الناصر في السويس لم يكن وليد عبقرية رجل عربي فذ، بقدر ما كان أيضاً «سوء إدارة» تدخّل قوى أوروبية كبرى هرمت ولم تعرف كيف تقرأ متغيرات التاريخ في الشرق الأوسط.

□□□

في بريطانيا، كان المجتمع إبان أزمة السويس

منقسماً على نفسه في العام ١٩٥٦ انقساماً لم يشهده من قبل في قضية تتعلق بالسياسة الخارجية. وعاد هذا الانقسام وتكرر في العام ٢٠٠٣ في قضية غزو العراق. كان العالم في العام ١٩٥٦، يختلف كلياً، بل جذرياً، عما صاره بعد خمسين سنة. كانت ذكريات الحرب العالمية الثانية ما زالت ماثلة للأذهان، والمستعمرات البريطانية العديدة لم تنتفض كلها بعد، وحركات التحرر الوطني في آسيا وأفريقيا ما زالت طرية العود، ما عدا الهند، التي لم يكن بعد قد مرّ على استقلالها عشر سنوات. كان هناك شعور «رباني» لدى معظم البريطانيين بأن لبريطانيا حقاً في خيرات مستعمراتها.

كان البريطانيون لا يثقون بعبد الناصر. لذلك سحبت بريطانيا عرضها المشاركة في تمويل السد العالي، بتشجيع من دالاس الذي اقترح أن يموله الروس الذين كانوا ينتظرون هذه الفرصة إذا

انسحب الغرب. إلّا أن بريطانيا لم تحسب حساب رد فعل عبد الناصر الفوري، وهو تأميم قناة السويس، لاستخدام مداخيل القناة في بناء السد، واستبدال هذه المداخيل عوضاً عن القرض الأميركي ـ البريطاني الموعود.

وأدركت بريطانيا بعد الحرب أنه لا يمكنها أن تقوم بعد الآن بأي عمل حربي من دون دعم أميركا وموافقتها. وكانت حرب جزر الفوكلاند ضد الأرجنتين التي شنتها مارغريت تاتشر رئيسة الحكومة البريطانية في العام ١٩٨٢، بدعم من الرئيس الأميركي رونالد ريغان، نوعاً من الانتقام لحرب السويس قبل ٢٦ سنة. وعندما أزف موعد غزو العراق، لم يكن أمام طوني بلير إلّا اللحاق بجورج بوش. وسيبقى كل سياسي بريطاني بعده لاعباً ثانوياً يلهث وراء اللاعب الأميركي.

□□□

في فرنسا كان المشهد مختلفاً. فردود الفعل الفرنسية كانت عنيفة أيضاً، إنما لأسباب مختلفة. أولها أن لفرنسا حصة أساسية في شركة قناة السويس التي كان مركزها الرئيسي باريس، ويديرها فرنسيون من الإسماعيلية. ثانيها، أن فرنسا كانت تخوض حرباً استعمارية صعبة في الجزائر، بعد استعمار دام ١٣٠ سنة، وأن حكومة غي موليه الاشتراكية كانت مصممة على القضاء على الثورة الجزائرية هناك، بزعامة جبهة التحرير الوطنية الجزائرية بكل ما تملك الجمهورية الرابعة من قوة. وبلغ عدد القوات الفرنسية التي كانت تحارب في الجزائر في صيف ١٩٥٦، ٤٠٠ ألف عسكري. وكان عبد الناصر يدعم ثورة الجزائر بالمال والسلاح والخبرات. لذلك كان الفرنسيون، كالبريطانيين، راغبين بالتخلص من عبد الناصر. ومن هنا بدأ التنسيق العسكري بين بريطانيا وفرنسا لإعداد خطة لغزو مصر عن طريق القناة.

انسحب الغرب. إلّا أن بريطانيا لم تحسب حساب رد فعل عبد الناصر الفوري، وهو تأميم قناة السويس، لاستخدام مداخيل القناة في بناء السد، واستبدال هذه المداخيل عوضاً عن القرض الأميركي ـ البريطاني الموعود.

وأدركت بريطانيا بعد الحرب أنه لا يمكنها أن تقوم بعد الآن بأي عمل حربي من دون دعم أميركا وموافقتها. وكانت حرب جزر الفوكلاند ضد الأرجنتين التي شنتها مارغريت تاتشر رئيسة الحكومة البريطانية في العام ١٩٨٢، بدعم من الرئيس الأميركي رونالد ريغان، نوعاً من الانتقام لحرب السويس قبل ٢٦ سنة. وعندما أزف موعد غزو العراق، لم يكن أمام طوني بلير إلّا اللحاق بجورج بوش. وسيبقى كل سياسي بريطاني بعده لاعباً ثانوياً يلهث وراء اللاعب الأميركي.

□□□

في فرنسا كان المشهد مختلفاً. فردود الفعل الفرنسية كانت عنيفة أيضاً، إنما لأسباب مختلفة. أولها أن لفرنسا حصة أساسية في شركة قناة السويس التي كان مركزها الرئيسي باريس، ويديرها فرنسيون من الإسماعيلية. ثانيها، أن فرنسا كانت تخوض حرباً استعمارية صعبة في الجزائر، بعد استعمار دام ١٣٠ سنة، وأن حكومة غي موليه الاشتراكية كانت مصممة على القضاء على الثورة الجزائرية هناك، بزعامة جبهة التحرير الوطنية الجزائرية بكل ما تملك الجمهورية الرابعة من قوة. وبلغ عدد القوات الفرنسية التي كانت تحارب في الجزائر في صيف ١٩٥٦، ٤٠٠ ألف عسكري. وكان عبد الناصر يدعم ثورة الجزائر بالمال والسلاح والخبرات. لذلك كان الفرنسيون، كالبريطانيين، راغبين بالتخلص من عبد الناصر. ومن هنا بدأ التنسيق العسكري بين بريطانيا وفرنسا لإعداد خطة لغزو مصر عن طريق القناة.

عندما توقف القتال، استنتجت فرنسا دروساً واضحة، أهمها أنها لا يمكنها الاعتماد على بريطانيا أبداً لأن بريطانيا «جحودة»، على الرغم من كونها أكبر قوة أوروبية في حينه. كما أدركت فرنسا أيضاً أن بريطانيا تضع «العلاقات الخاصة» التي تربطها بأميركا، فوق كل المصالح الأوروبية. أما أميركا بالنسبة إلى فرنسا، فهي بلد مزعج بضخامته وغير جدير بالثقة. لذلك كان على فرنسا أن تتطلع إلى أمكنة أخرى بحثاً عن حلفاء موثوقين. وهذا النوع من الحلفاء لا يتوفر بسهولة. لذلك أبعدت فرنسا بريطانيا التي كانت تصفها بأنها «حصان طروادة الأميركي» عن «معاهدة روما» التي وقعت في العام ١٩٥٧، بعد عام واحد من أزمة السويس. وبقيت لندن معزولة عن أوروبا حتى العام ١٩٧٣، عندما وضعت قدمها داخل الاتحاد الأوروبي.

ولم يكن مستغرباً عندما جاء العام ٢٠٠٣، أن تؤدي فرنسا في حرب العراق دور أميركا في حرب السويس عام ١٩٥٦ ، وإن لم يكن جاك شيراك في قوة دوايت أيزنهاور في إيقاف الحرب بالضربة القاضية.

□ □ □

في الولايات المتحدة، كان للمشهد منحى آخر. فقد قابلت إدارة أيزنهاور الاستعدادات البريطانية ــ الفرنسية بشيء من الاستخفاف والتردد، وخاصة أن أميركا كانت منذ بدء أزمة السويس تعارض استعمال القوة العسكرية لحلفائها ضد مصر. وكان محط اهتمام أيزنهاور انتخابات الرئاسة في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥٦، إذ كان مرشحاً لها لدورة ثانية، وكان يطمح إلى الفوز فيها كـ «رئيس سلام». وكان أيزنهاور يعلم علم اليقين أن الناخبين الأميركيين لن يصوتوا له إذا

أخذهم إلى مغامرة حرب خارجية لا مصلحة أميركية فيها، وحيث يمكن أن يقتل فيها جنود أميركيون. وكان أيزنهاور أيضاً من رعيل الجيل الأميركي الذي نشأ بحكم تربيته في أجواء معادية للاستعمار التي كانت منتشرة في ثقافة أميركا في مطلع القرن العشرين، ومعادية لمؤسسات الاستعمار بعدما تحررت هي في حرب استقلالها من الاستعمار البريطاني.

ومن الأسباب الأخرى لموقف أيزنهاور، خوفه من انتشار الحرب الباردة الجديدة في بلدان العالم العربي وآسيا وأفريقيا إذا استمرت بريطانيا وفرنسا بتهديد مصر، وبالتالي دفعهم نحو المعسكر الشيوعي. لذلك، عمد أيزنهاور ودالاس إلى إلهاء الدول الأوروبية، ومنها بريطانيا وفرنسا بالطبع، بدعوتها إلى عدد من المؤتمرات حول أزمة السويس التي لا طائل تحتها، وتحت مسميات عديدة، في

محاولة لإضاعة الوقت وسحب البساط من تحت بريطانيا وفرنسا لتأخير القيام بعمل عسكري. وعطلت مناورات الديبلوماسية الأميركية من اندفاع الحرب عند وقوعها. وكان أيزنهاور قد صُدم عندما بلغه أن إيدن لا يريد فقط أن يستعيد القناة ويلغي حالة التأميم، بل يريد أيضاً القضاء على عبد الناصر وإسقاط نظامه. وطرحت في الذهن الأميركي ـــ ربما للمرة الأولى ـــ فكرة تغيير الأنظمة في العالم الثالث.

عندما وقعت الحرب كان أيزنهاور آخر من يعلم بتواطؤ بريطانيا وفرنسا مع إسرائيل. وشعر بأن هناك مَنْ خانه بين حلفائه. وعلّق أمام مساعديه بقوله: «إنني لم أرَ قوى عظمى تفشل بهذا الشكل في أمر كهذا». وقرر أيزنهاور أن يضع حداً لهذا العمل. وضربت أميركا ضربتها موجهة إياها إلى اقتصاد بريطانيا الضعيف وعملتها المهزوزة في

حينه، عندما منعت واشنطن صندوق النقد الدولي من إعطاء قرض مستعجل إلى بريطانيا، ما لم توقف الأخيرة التدخل العسكري فوراً ضد مصر وتستدعِ قواتها من السويس. فما كان من بريطانيا، وهي تواجه إفلاس خزانتها وانهيار عملتها، إلّا أن قبلت فوراً بوقف الحرب. وفي ٧ تشرين الثاني/ نوفمبر استسلم إيدن لمطالب أميركا تاركاً قواته معلقة في منتصف الطريق بين سيناء والقناة. وغضب الفرنسيون لهذا القرار، واحتجّوا، إلّا أنهم عادوا واستسلموا لأن القيادة العسكرية للعمليات كانت لبريطانيا.

ربح أيزنهاور انتخابات الرئاسة. وأكدت أزمة السويس حجم أميركا كقوة عظمى لا تجارى، لا ينافسها في حينه إلّا الاتحاد السوفياتي. وكانت السويس أيضاً آخر أزمة حرب أو سياسة تقف فيها الولايات المتحدة ضد إسرائيل وتتخذ موقفاً شبه

عدائي منها، على طول امتداد أزمات الشرق الأوسط، كبيرها وصغيرها.

عند هذا المفترق أصبحت الولايات المتحدة هي القوة الفاعلة المسيطرة في الشرق الأوسط، معززة علاقاتها مع إسرائيل وإيران والسعودية. وفي كانون الثاني/ يناير من العام ١٩٥٧ أعلن عن «مبدأ أيزنهاور» الذي أفصح عن استعداد أميركا لمساعدة أي بلد يواجه اعتداء أو خطراً شيوعياً. وفي العام ١٩٥٨ طبق مبدأ أيزنهاور عندما تمَّ إنزال قوات أميركية في لبنان في عهد الرئيس كميل شمعون، لحماية الدولة اللبنانية الموالية للغرب.

□ □ □

في إسرائيل كانت هناك عدة مشاهد، أولها أن إسرائيل حققت أهدافها رغم إرغامها على الانسحاب من سيناء في العام ١٩٥٧. فبعد حرب

السويس، ونتيجة لها، جرى وضع قوات دولية على الحدود في سيناء بين إسرائيل ومصر، التي شكلت نوعاً من الحماية لحدود إسرائيل وتعريفاً لها، وظلت هذه القوات الأممية هناك حتى ارتكب عبد الناصر غلطته التاريخية الفادحة عندما طلب سحبها في العام ١٩٦٧، مما أدى إلى هزيمته في الحرب التي تبعتها. واستفادت إسرائيل من فترة السنوات العشر التي مرت بين ١٩٥٧ و١٩٦٧، فعملت على استيعاب مليون مهاجر يهودي جديد. وبنت قواتها المسلحة بما في ذلك سلاحها النووي، واستبدلت حليفتها فرنسا، بحليف أهم وأقوى وأبقى هو الولايات المتحدة. وأصبح هناك أمر واقع جديد شرحه مؤرخ آخر بقوله، إنه «وضع غير مستقر في حالة سريعة الاشتعال إلى درجة أن أي «كبريتة» قد تفجرها».

هكذا كانت الأوضاع نتيجة للعدوان الثلاثي

والتواطؤ المشترك بين الدول الثلاث، التي جعلت من إسرائيل أداة للاستعمار ووسيلة للاعتداء وجسراً لخدمة المصالح السياسية الأجنبية في الشرق الأوسط. وظلت عملية التواطؤ الثلاثي على مصر في حرب السويس تعيش في الذاكرة العربية، فحتى عندما وقعت حرب ١٩٦٧، الأقصر زمناً من حرب السويس، سارعت الدول العربية إلى اتهام كل من بريطانيا وفرنسا بأنها تحارب مع القوات الإسرائيلية. وعندما نفت الدول المعنية هذا الأمر بشكل قاطع، لم يصدقها أحد من العرب. فقد كانت «الكذبة الكبرى» التي جرى استخدامها في حرب السويس، ما زالت ماثلة في الذاكرة العربية ــ وستبقى إلى أمد طويل.

□ □ □

أما المشهد في **الأمم المتحدة**، فكان مختلفاً جداً عما سبقه وما تلاه في الخمسين سنة الأخيرة.

ولعبت أميركا في هذا المشهد دوراً أساسياً في تاريخ الأمم المتحدة، عندما تقدمت بقرار إلى الجمعية العامة في الثاني من تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥٦ يدعو إلى وقف إطلاق النار وفاز بأغلبية ٦٤ صوتاً مقابل اعتراض خمسة أصوات. وصوّت الاتحاد السوفياتي إلى جانب أميركا في هذا القرار.

وللتحايل على «الفيتو» الذي تملكه كل من بريطانيا وفرنسا داخل مجلس الأمن، دعت أميركا الجمعية العامة، لأول مرة في تاريخها، إلى اجتماع طارىء بدلاً من مجلس الأمن (حيث لا تملك أي دولة حق الفيتو في الجمعية العامة) لبحث اقتراح كندي يدعو إلى جمع قوات طوارىء وإرسالها إلى القناة لوقف إطلاق النار. وكانت هذه أول فرقة «قبعات زرق» للطوارىء تنفّذ مهمات حفظ السلام في مسيرة الأمم المتحدة.

□□□

تشير أزمة السويس، بعد نصف قرن من حدوثها، إلى نقص في تفسير التاريخ، قوامه أن الذين لا يستطيعون تذكر الماضي، محكومون بإعادته دائماً. وقد يكون هذا صحيحاً، لكن الأصح أن الذين يسيئون تفسير الماضي محكومون بعدم إتقان التعامل مع الحاضر. حذار!

فهرس الأعلام

كتب صدرت للمؤلف

١ ـ **موت الآخرين** ـ شعر، ١٩٦٢.

٢ ـ **الفترة الحرجة** ـ دراسات نقدية (١٩٦٠ – ١٩٦٥). الطبعة الأولى ١٩٦٥، الطبعة الثانية مزيدة وليست منقحة، بعنوان فرعي «**نقد في أدب الستينات**» ـ ١٩٩٢.

٣ ـ **صراع الواحات والنفط** ـ هموم الخليج العربي. الطبعة الأولى ١٩٧٣، الطبعة الثانية ١٩٧٤، الطبعة الثالثة ٢٠٠٤.

٤ ـ **البحث عن توفيق صايغ** ـ شعر، ١٩٧٥.

٥ ـ **المسار الصعب** ـ المقاومة الفلسطينية: منظماتها، أشخاصها، علاقاتها، ١٩٨٦ (مع دنيا نحاس) [صدر بالإنكليزية أيضاً].

٦ ـ **ظفار ـ** قصة الصراع السياسي والعسكري في الخليج العربي (١٩٧٠ ـ ١٩٧٦) الطبعة الأولى ١٩٧٨، الطبعة الثانية ٢٠٠٠، الطبعة الثالثة منقحة ومزيدة ٢٠٠٢.

٧ ـ **الخليج العربي ورياح التغيير ـ** مستقبل الوحدة والقومية والديموقراطية. الطبعة الأولى ١٩٨٦، الطبعة الثانية ١٩٩٠.

٨ ـ **وثائق الخليج العربي ـ** طموحات الوحدة وهموم الاستقلال. الطبعة الأولى ١٩٨٧، الطبعة الثانية ١٩٩٠. الطبعة الثالثة ٢٠٠٢.

٩ ـ **جواسيس بين العرب ـ** صراع المخابرات الأجنبية. الطبعة الأولى ١٩٨٧، الطبعة الثانية ١٩٩١، الطبعة الثالثة ٢٠٠٢.

١٠ ـ **شخصيات عربية من التاريخ ـ** الطبعة الأولى ١٩٨٧، الطبعة الثانية ١٩٨٩.

١١ ـ **المسيحيون والعروبة ـ** مناقشة في المارونية السياسية والقومية العربية. الطبعة الأولى

١٩٨٨، الطبعة الثانية ١٩٩١.

١٢ ـ **العرب وجيرانهم ـ** الأقليات القومية في الوطن العربي، ١٩٨٩.

١٣ ـ **قبل أن تبهت الألوان ـ** صحافة ثلث قرن، ١٩٩١.

١٤ ـ **رياح السموم ـ** السعودية ودول الجزيرة بعد حرب الخليج، ١٩٩١ ـ ١٩٩٤. الطبعة الأولى ١٩٩٤، الطبعة الثانية ١٩٩٥، الطبعة الثالثة ١٩٩٧.

١٥ ـ **أكتب إليكم بغضب ـ** كيف تقول «لا» في عصر «نعم»، ١٩٩٦.

١٦ ـ **ثلاثة شعراء وصحافي ـ** رسائل جبرا إبراهيم جبرا، يوسف الخال وتوفيق صايغ إلى رياض نجيب الريّس، ١٩٩٦.

١٧ ـ **رياح الشمال ـ** السعودية والخليج والعرب في عالم التسعينات. الطبعة الأولى ١٩٩٧. الطبعة الثانية ١٩٩٧.

١٨ ـ **صحافي ومدينتان ـ** رحلة إلى سمرقند وزنجبار.

الطبعة الأولى ١٩٩٧.

١٩ ـ **رياح الجنوب** ـ اليمن ودوره في الجزيرة العربية (١٩٩٠ ـ ١٩٩٧). الطبعة الأولى ١٩٩٨.

٢٠ ـ **حديث صحافي مع الإمام علي بن أبي طالب** ـ الطبعة الأولى ٢٠٠٠.

٢١ ـ **المفكرة الأندلسية** ـ أموي في غرناطة دمشقي في قرطبة. الطبعة الأولى ٢٠٠٠.

٢٢ ـ **رياح الشرق** ـ الخليج والعالم العربي عند نهاية القرن العشرين. الطبعة الأولى ٢٠٠٠.

٢٣ ـ **مصاحف وسيوف** ـ إيران من الشاهنشاهية إلى الخاتمية. الطبعة الأولى ٢٠٠٠.

٢٤ ـ **قضايا خاسرة** ـ من الإسكندرونة إلى البلقان ومن عُمان إلى الشيشان. الطبعة الأولى ٢٠٠٠.

٢٥ ـ **الجاني والضحية** ـ مصادرة الإسلام والعروبة. الطبعة الأولى ٢٠٠٠.

٢٦ ـ **لبنان ـ تاريخ مسكوت عنه**. الطبعة الأولى ٢٠٠١.

٢٧ ـ **سيناريو لمستقبل متغيرات عربية** ـ الطبعة الأولى ٢٠٠٤.

٢٨ ـ **آخر الخوارج** ـ أشياء من سيرة صحافية. الطبعة الأولى ٢٠٠٤.

$ 4.00

رياض نجيب الريّس

الحرب المنسيّة
السويس ١٩٥٦

في ذكرى مرور خمسين عاماً على أزمة السويس يكتب رياض نجيب الريّس عن قصة تأميم القناة والحرب التي اندلعت بعدها، والتواطؤ الذي أدى إليها، والتداعيات العربية والدولية التي لحقتها. وهي قصة أهملتها الذاكرة العربية وتاريخ نسيه الناس.

رياض الريّس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

ISBN 9953-21-261-9

